

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ



حِينَ تَغْشَى الْحَقِيقَةُ
الْوُجُوهَ وَيَعُودُ الْإِنْسَانُ إِلَى رَبِّهِ



تَأْلِيف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ



سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

حِينَ تَغْشَى الْحَقِيقَةُ الْوُجُوهَ
وَيَعُودُ الْإِنْسَانُ إِلَى رَبِّهِ



تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

السورة التي ترفع الغطاء عن المصير

ليست سورة الغاشية حديثاً عن يومٍ بعيدٍ يُضاف إلى معلومات الإنسان عن المستقبل، وإنما هي إيقاظٌ للوعي من غفلته عن أعظم مستقبل ينتظره؛ ذلك المستقبل الذي لا نتوقف خطورته على وقوعه فحسب، بل على كونه اللحظة التي ينكشف فيها معنى العمر كله، وتظهر فيها القيمة الحقيقية لكل خطوةٍ مشاها الإنسان، ولكل رغبةٍ أطاعها، ولكل مبدأٍ ثبت عليه أو تخلى عنه. إن السورة لا تنقل القارئ إلى القيامة لترى مشهداً غيبياً مهيباً ثم تعيده كما كان، بل تريد أن تأتي بالقيامة إلى قلبه الآن؛ حتى يزن يومه بميزان النهاية، ويرى اختياراته الصغيرة وهي تشكل في الخفاء مصيراً كبيراً لا يستطيع الرجوع عنه.

تبدأ السورة بسؤال يهزّ السكون: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾، كأنّ الخبر قد بلغ أبواب القلب، لكنه لم يدخل بعده، وكأنّ الإنسان يسمع عن الآخرة كثيراً، غير أن السماع لا يتحوّل دائماً إلى حضور، والمعرفة لا تصير بالضرورة يقيناً عاملاً. وما أكثر الحقائق التي نعرفها ولا

نعيش في ضوءها، ونرددها بألسنتنا بينما تمضي قراراتنا اليومية في اتجاهٍ آخر. لذلك لا تسأل السورة عن مجرد وصول الألفاظ، بل توقظ في النفس سؤالاً أعمق: هل بلغك من خبر الغاشية ما غير رؤيتك للحياة؟ هل عبر الخبر من أذنك إلى قلبك، ومن قلبك إلى إرادتك، ومن إرادتك إلى عملك؟

والغاشية اسمٌ يحمل في جرسه معنى الإحاطة والاجتياح؛ فهي القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالها، فلا يملك أحدٌ أن يخرج من سلطانها، ولا يستطيع قوياً أن يصدّها، ولا غافلٌ أن يؤخّرها، ولا مستكبرٌ أن يبني بينه وبين حقيقتها سوراً. كل ما كان يحجب الإنسان عن المصير يسقط يومئذٍ: ضجيج الدنيا، وطول الأمل، وسحر العادة، وفتنة القوة، والتعلق بالناس، والاعتزاز بالمهلة. وحين تغشى الغاشية الوجود، لا تعود الحقيقة فكرةً قابلة للنقاش، وإنما تصبح مشهداً قائماً يواجهه الإنسان بوجهه وروحه وعمله.

ثم تتجه السورة إلى الوجوه؛ لأن الوجه صفحة الداخل، والموضع الذي تظهر عليه آثار الفرح والخوف والذل والطمأنينة. هناك وجوهٌ خاشعة، أرهقتها عملٌ لم ينفعها، وسأقت نفسها إلى نارٍ حامية، وهناك وجوهٌ ناعمة، ترى ثمرات سعيها وتطمئن إلى رضا الله عنها. والمفارقة

المزلزلة أن الفريقين عملاً وسعيًا في الدنيا، لكن العبرة لم تكن بمجرد الحركة، وإنما بوجهتها، ولم تكن بكثرة التعب، وإنما بصحة الطريق، ولم تكن بامتلاء الحياة بالأفعال، وإنما باتصال تلك الأفعال بالإيمان والإخلاص والهدى. فقد يتعب الإنسان كثيراً، ثم يكتشف أن تعبهُ كان دوراناً حول نفسه، أو خدمةً لهواه، أو بناءً لما سينهار عند أول تماسٍّ مع الآخرة.

وبعد أن تعرض السورة مشهدي الشقاء والنعيم، لا تترك الإنسان أسير رهبة الغيب، بل تعيده إلى العالم المفتوح أمام عينيه: إلى الإبل، والسماء، والجبال، والأرض. كأنها تقول له: إن الذي أخبرك بالآخرة لم يطلب منك إيماناً منفصلاً عن النظر؛ فأثار قدرته تحيط بك، وحكمته مكتوبةٌ في تكوين المخلوقات، ووحدانيته تتجلى في هذا الاتساق العظيم. إن المشكلة ليست دائماً في نقص الدليل، بل في العين التي اعتادت النظر من غير إبصار، وفي العقل الذي استهلكته التفاصيل حتى غاب عنه السؤال الأكبر: من أنشأ هذا كله؟ ولماذا وُجد الإنسان فيه؟ وإلى أين تنتهي رحلته؟

ثم تحدّد السورة مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم في كلماتٍ قليلةٍ حاسمة: التذكير، لا السيطرة على القلوب؛ إبلاغ الحقيقة، لا إكراه

الضمائر على استقبالها. وهذه الحقيقة ترسم حدود الدعوة وحدود المسؤولية الإنسانية: فلرسالة أن تُسمع وتبين وتفتح الطريق، أما الاستجابة فتنبع من اختيار الإنسان الذي سيحمل تبعه اختياره. ولهذا تختم السورة بإيقاع الرجوع والحساب: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ؛ فكل الطرق، مهما تباعدت، تنتهي إلى الله، وكل الأعمار، مهما طالت، تنتهي إلى موقفٍ لا تضيع فيه ذرة، ولا تختلط فيه حقيقة، ولا يهضم فيه حق.

وهذا النص ليس تفسيراً جامعاً معتمداً للسورة، وإنما هو تدرُّج أدبي وإيماني يستند إلى دلالاتها الظاهرة ومقاصدها العامة، ويحاول أن يصحب القارئ في انتقالاتها: من الخبر إلى المشهد، ومن الوجوه إلى المصائر، ومن النار إلى الجنة، ومن الغيب إلى الكون، ومن التذكير إلى الحساب. إنها رحلة قصيرة في عدد آياتها، بعيدة المدى في أثرها؛ تبدأ بسؤال: هل أتاك؟ وتنتهي بيقين: إلينا إياهم، وبين السؤال واليقين يقف عمر الإنسان كله، مطالباً بأن يختار الوجهة قبل أن يصبح الاختيار جزءاً أبدياً.

الفصل الأول

الخبر الذي لا يبقى خبراً: حين تغشى القيامة
كل شيء

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾

يأتي السؤال القرآني لا ليستفهم عن أمرٍ يجهله الله سبحانه، تعالى عن ذلك، وإنما ليستدعي انتباه الإنسان، ويفتح في وعيه نافذةً على النبأ العظيم. إن عبارة ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ تحمل معنى التشويق والتنبيه والتفخيم؛ فالذي سيأتي بعدها ليس خبراً عابراً يمرّ على الذاكرة ثم يذوب، بل حقيقةٌ ينبغي أن تعيد ترتيب علاقة الإنسان بذاته وزمنه وعمله. وما أوحج القلب إلى هذا السؤال كلما أطبق عليه دخان الحياة: هل أتاك حقاً خبر النهاية؟ أم أتاك لفظه وغاب عنك سلطانه؟ هل تعرف القيامة كما تعرف معلومةً محفوظة، أم تشعر بها كموعِدٍ يراقب اختياراتك ويمنح أعمالك وزنها الأخروي؟

سُمِّيتِ الْقِيَامَةُ بِالْغَاسِيَةِ لِأَنَّهَا تَغْشَى النَّاسَ بِأَهْوَالِهَا وَتَعْمَهُمْ بِأَحْدَاثِهَا،
فَلَا يَنْجُو أَحَدٌ مِنَ الْحُضُورِ، وَإِنْ اخْتَلَفَ النَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمَصِيرِ. وَفِي
هَذَا الْاسْمِ إِبْطَالُ لَوْهَمٍ خَفِيٍّ يَسْكُنُ كَثِيرًا مِنَ النَفُوسِ: وَهَمُّ الْقُدْرَةِ عَلَى
الْإِفْلَاتِ الدَّائِمِ. قَدْ يَفْلَتُ الظَّالِمُ مِنْ قَضَاءِ الْأَرْضِ، وَيَفْلَتُ الْخَادِعُ مِنْ
أَعْيُنِ النَّاسِ، وَيَفْلَتُ الْمُرءُ مِنْ أَسْئَلَةٍ كَثِيرَةٍ بِالْمُرَاوَعَةِ أَوِ النِّسْيَانِ؛ لَكِنَّهُ لَا
يَفْلَتُ مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي يَغْشَى الْجَمِيعَ. إِنْ الْقِيَامَةُ لَا تَأْتِي إِلَى قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ،
وَلَا تَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ الْمَمَالِكِ، وَلَا تَعْتَرِفُ بِالطَّبَقَاتِ وَالْأَلْقَابِ، وَإِنَّمَا
تَنْزِعُ عَنِ الْإِنْسَانِ كُلِّ غَطَاءٍ اجْتِمَاعِيٍّ، وَتَضَعُهُ أَمَامَ حَقِيقَتِهِ مُجَرَّدًا إِلَّا
مِنْ إِيمَانِهِ وَعَمَلِهِ.

وَفِي وَصْفِ الْقِيَامَةِ بِالْغَاسِيَةِ صُورَةٌ تَهْدِمُ شُعُورَ الْإِنْسَانِ بِأَنَّ الدُّنْيَا
هِيَ الْإِطَارُ النَّهَائِيُّ لِلْوُجُودِ. نَحْنُ نَعِيشُ غَالِبًا دَاخِلَ دَوَائِرٍ صَغِيرَةٍ: مَوْعِدٍ
نَنْتَظِرُهُ، أَوْ خَسَارَةٍ نَخْشَاهَا، أَوْ مَنَزَلَةٍ نَرِيدُهَا، أَوْ خِلَافٍ يَسْتَتِرُفْنَا، حَتَّى
تَبْدُو هَذِهِ الْأَشْيَاءُ كَأَنَّهَا الْعَالَمُ كُلُّهُ. ثُمَّ تَأْتِي كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، الْغَاسِيَةُ، فَتَوْسِّعُ
الْأَفَقَ بَعْنَفٍ رَحِيمٍ، وَتَذَكِّرُنَا بِأَنَّ وَرَاءَ هَذِهِ الدَّوَائِرِ حَدَثًا سَيَغْشَى الْعَالَمَ
بَأَسْرِهِ، وَأَنَّ مَا نَرَاهُ ضَخْمًا الْيَوْمَ قَدْ يَبْدُو هُنَاكَ هَيْئًا، وَأَنَّ مَا نَسْتَهِنُ بِهِ مِنْ
كَلِمَةٍ أَوْ مَظْلَمَةٍ أَوْ رَكْعَةٍ أَوْ دُمْعَةٍ قَدْ يَظْهَرُ يَوْمَئِذٍ أَثْقَلُ مِمَّا ظَنَنَّا.

والحديث عن الغاشية رحمةً قبل أن يكون تخويفاً؛ لأن التحذير قبل وقوع الخطر نجاة، ولأن الله لم يترك الإنسان حتى يفاجئه المصير بلا بيان، بل أرسل إليه الخبر، وأقام له الدليل، وفتح أمامه زمن التوبة والعمل. إن الخوف الذي يصنعه القرآن ليس خوفاً يشل الإرادة، بل خوفٌ يحررها من الغرور؛ ليس ظلمةً تغلق المستقبل، بل نورٌ يكشف الهاوية كيلا يسقط فيها السائر. ومن هنا يصبح السؤال الأول في السورة دعوةً إلى اليقظة: ما دام حديث الغاشية قد أذكّك، فما الذي ستفعله بهذا الخبر؟ وهل ستجعله عنصراً حياً في بناء يومك، أم تضعه في هامش المعرفة ثم تواصل السير كأنك لن ترجع؟

الفصل الثاني

تعب بلا نجاة: وجوه الخشوع المتأخر

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۖ ذَلِيلَةٌ مُنْكَسِرَةٌ ۖ قَدْ سَقَطَ عَنْهَا مَا كَانَتْ تَتَزَيَّنُّ بِهِ مِنْ كِبَرِيَاءٍ ۖ وَالْخُشُوعُ هُنَا لَيْسَ خُشُوعُ الْعَابِدِ الَّذِي انْحَنَى قَلْبُهُ لِلَّهِ طَوْعًا فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا خُشُوعُ الذَّلِّ الَّذِي جَاءَ بَعْدَ فَوَاتِ الْإِخْتِيَارِ. وَبَيْنَ الْخُشُوعَيْنِ مَسَافَةٌ الْعُمُرِ: مَنْ خَشَعَ لِلَّهِ مُخْتَارًا فِي الدُّنْيَا رَفَعَهُ اللَّهُ، وَمَنْ اسْتَكْبَرَ عَنِ الْحَقِّ قَدْ يَلْقَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُشُوعًا لَا يَنْفَعُهُ؛ لِأَنَّ الْمَوْقِفَ لَمْ يَعِدْ مَوْقِفَ تَكْلِيفٍ وَإِيمَانٍ، بَلْ مَوْقِفَ كَشْفٍ وَجَزَاءٍ.﴾

تنتقل السورة من اسم الحدث إلى أثره في الوجوه، فتجعلنا نرى القيامة لا في اضطراب الكون وحده، بل في ملامح الإنسان. ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾؛ ذليلة منكسرة، قد سقط عنها ما كانت تتزين به من كبرياء. والخشوع هنا ليس خشوع العابد الذي انحنى قلبه لله طوعاً في الدنيا، وإنما خشوع الذل الذي جاء بعد فوات الاختيار. وبين الخشوعين مسافة العمر: من خشع لله مختاراً في الدنيا رفعه الله، ومن استكبر عن الحق قد يلقى يوم القيامة خشوعاً لا ينفعه؛ لأن الموقف لم يعد موقف تكليف وإيمان، بل موقف كشف وجزاء.

إن الوجه الذي طالما تعلم كيف يخفي اضطراب النفس، ويصنع الثبات أمام الناس، ويتسم وهو يوارب، لن يستطيع يومئذ أن يستر شيئاً. في الدنيا يمكن للملاح أن يتحول إلى أقنعة، أما في الآخرة فالوجه

وثيقة ظاهرة لما استقر في الروح. ولذلك يربّي القرآن الإنسان على إصلاح الداخل، لا على تحسين الصورة وحدها؛ إذ ليست النجاة في أن تبدو صالحاً، بل في أن تكون صادقاً مع الله، وليست الكرامة في تصفيق العيون لك، بل في سلامة القلب حين تعرض السرائر.

ثم يأتي الوصف المثير للرغبة: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾. وقد ذكر المفسرون في معناها أنها عملت وتعبت، وأن النصب هو الإعياء والمشقة، وقيل: إنها تعمل في النار عملاً شاقاً. واللفظ يحتمل في سياق الوعيد صورة التعب الملازم لأهل الشقاء. ومن باب التدرج، توقظ الآية سؤالاً شديداً الصلة بحياتنا: هل يكفي أن يتعب الإنسان كي يكون على صواب؟ إن التعب وحده لا يثبت سلامة الطريق؛ فقد ينفق المرء سنواته في طلب ما يبعده عن الله، ويستنزف قلبه في منافسة لا تبني فيه فضيلة، ويجهتد في تزيين باطلٍ أو تثبيت ظلمٍ أو خدمة شهوة، ثم لا يبقى له من السعي إلا الإعياء.

وهنا تكشف السورة مأساة العمل المنفصل عن الهداية. ليس كل امتلاء في الجدول امتلاءً في الميزان، ولا كل حركة اقتراباً، ولا كل نجاح دينوي علامة رضا. قد يصعد الإنسان سلماً طويلاً ثم يكتشف أنه كان مسنداً إلى الجدار الخاطئ. وقد يزدهم عمره بالمشروعات، لكن قلبه

يزداد خراباً، وحقوق الناس تتراكم في عنقه، وصلته بالله تذبل في داخله. إن القرآن لا يدعو إلى ترك العمل، بل إلى إنقاذه من الضياع، بأن يتصل بالإيمان، ويستقيم على الحق، ويتطهر من الرياء والعدوان، ويعرف صاحبه لماذا يعمل ولمن يعمل وإلى أي نهاية يقوده عمله.

تدعونا الآيتان إلى مراجعة مفهوم الإنجاز نفسه. الإنجاز في ميزان الدنيا هو بلوغ الغاية التي رسمها الإنسان لنفسه، أما في ميزان الآخرة فهو أن تكون الغاية صحيحةً والطريق مشروعةً والقلب مخلصاً والعاقبة مرضيةً لله. ولذلك قد يكون إنسانٌ قليل الحضور في أعين الناس عظيمًا في ميزان الله، وقد يكون آخر تملأ آثاره المشهد، ثم لا تحمل تلك الآثار له نوراً عند الحساب. ليست القضية أن نعمل فحسب، وإنما أن نسأل قبل العمل وأثناءه وبعده: أهذا مما يرضي الله؟ هل يصلحني أم يفسدني؟ هل ينفع الخلق أم يقوم على أذاهم؟ وهل أحب أن ألقى الله به إذا انقطع عني ضجيج الثناء كله؟

﴿تَصَلِّ نَارًا حَامِيَةً ۖ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ أَنِيَّةٍ﴾

يتحوّل التعب إلى مصير: ﴿تَصَلِّ نَارًا حَامِيَةً﴾، أي تدخل ناراً بالغة الحرارة وتقاسيها. ولا يحتاج التعبير إلى زخرفةٍ تصرف القلب عن رهبة المعنى؛ فلفظة حامية وحدها تفتح في الحس باباً من الهول. النار التي

عرفها الإنسان في الدنيا، على شدتها، ليست إلا جزءاً من عالمه المحدود، أما نار الآخرة فهي من شأن الغيب الذي أخبر الله به، وواجب المؤمن أن يتلقّى الخبر بالتصديق والخوف من أسبابه، من غير تكلفٍ في تصوير ما لم يأت به الوحي.

ثم تشتد المفارقة في قوله: ﴿لُسُقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ﴾، أي من عينٍ قد بلغت غاية الحرارة. الماء الذي جعله الله في الدنيا حياةً وتبريداً وإطفاءً للظما يتحوّل في مشهد العقوبة إلى زيادةٍ في الألم؛ لأن القضية ليست في اسم الشيء، بل في حقيقته التي يقدرها الله. وفي ذلك تذكيرٌ بأن الإنسان لا يملك من النعم شيئاً بذاته؛ فالماء لا ينفع إلا بإذن الله، والطعام لا يشبع إلا بتقديره، والأسباب كلها لا تستقل بأثرها عن خالقها. من ظنّ أن الأشياء تنجيه بنفسها نسي ربّ الأشياء، ومن تعلق بالنعم دون المنعم قد يكتشف أن ما حسبه أماناً لا يملك له شيئاً.

والعطش من أشدّ صور الافتقار؛ فهو يجرد الكائن من كبرائه، ويجعله لا يطلب إلا جرعةً تسكن النار في جسده. لكن أهل هذا المشهد لا يجدون في الشراب راحة. وهنا يشعر المؤمن بقيمة الرحمة المحيطة به في الدنيا: كأس الماء البارد ليس حادثةً يوميةً تافهة، بل رسالة لطيفٍ متجددة؛ والمائدة التي يأكل منها ليست حقاً ذاتياً مضموناً، بل فضلٌ

يستوجب الشكر. إن استحضار الآخرة لا ينتزعنا من نعم الدنيا، وإنما يعلمنا أن نراها على حقيقتها: هبات مؤقتة تحمل في داخلها امتحان العبودية.

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿١﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾

الضريع نبات شائك معروف عند العرب، وقد وصفته الآيات بأنه لا يسمن ولا يدفع الجوع. والمشهد هنا يتجاوز مجرد الحرمان من الطعام اللذيذ إلى انهيار وظيفة الطعام نفسها؛ فهم يأكلون، لكن الأكل لا يمنح قوة، ويلتهمون، لكن الجوع لا يزول. إنها صورة من صور الخيبة الخالصة: سبب موجود في الظاهر، وغاية ممتنعة في الحقيقة.

ومن باب التأمل، تشبه هذه الصورة كثيراً من الشهوات حين يطلب الإنسان منها ما لا تستطيع منحه. كم من روج تأكل من ضريع الدنيا وهي تظن أنها تتغذى: مزيد من الشهرة ولا شبع، مزيد من المال ولا سكينة، مزيد من اللهات خلف الإعجاب ولا طمأنينة، مزيد من الانتصار للنفس ولا سلام. ليست هذه الأشياء ضريعاً في ذاتها على الإطلاق؛ فالمال والنجاح ومحبة الناس قد تكون نعماً إذا وُضعت في

مواضعها، لكنها تصبح شبيهةً بطعامٍ لا يغني حين نطلب منها أن تملأ فراغ الروح الذي لا يملؤه إلا الإيمان بالله ومعرفته والأنس به.

إن الجوع الحقيقي ليس دائماً جوع الجسد؛ فقد تمتلئ الموائد ويظل القلب يتلوّى من خواء المعنى. وقد يملك الإنسان من أسباب الراحة ما يحسده عليه الآخرون، ثم لا يجد داخل نفسه موضعاً يستريح فيه. والسورة، وهي تعرض طعام أهل النار، تعلّمنا أن نسأل عن غذاء أرواحنا في الدنيا: ماذا نقرأ؟ ماذا نسمع؟ ما الأفكار التي ندخلها إلى قلوبنا؟ أيصحّ إيماننا بما نستهلكه من صورٍ وكلماتٍ ورغبات؟ فالروح أيضاً تجوع، لكنها قد تخطئ اسم الطعام، فتظل تتناول ما يزيد جوعها وتحسب أنها تقترب من الشبع.

وهكذا يكتمل مشهد أهل الشقاء في ألفاظٍ قليلة: وجوهٌ ذليلة، وعملٌ مرهق، ونارٌ حامية، وشرابٌ لا يطفئ، وطعامٌ لا يغذي. إنه عالمٌ تعطلت فيه أبواب الراحة جميعاً؛ لأن أصحابه أعرضوا في زمن الاختيار عن الباب الذي يقود إليها. وليس عرض هذا المشهد دعوةً إلى اليأس، بل نداءً عاجل إلى النجاة ما دام الإنسان قادراً على التوبة، وما دام الماء بارداً، والطعام نافعاً، والباب مفتوحاً، والقلب يستطيع أن يرجع.

الفصل الثالث

حين يرى السعي ثمرته: وجوه النعيم وطمأنينة الرضا

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِّسَعِيٍّ رَّاضِيَةٍ﴾

بعد مشهد الشقاء، يفتح في السورة أفق آخر؛ فالقرآن لا يترك القلب تحت سلطان الخوف وحده، لأن الخوف إذا انفصل عن الرجاء قد يتحوّل إلى قنوط، كما أن الرجاء إذا انفصل عن الخوف قد يصير غروراً. وبين الجناحين تستقيم رحلة العبودية. ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾، يظهر عليها أثر النعيم، لا بوصفه زينةً خارجيةً فحسب، بل لأنه فاض من داخل الأرواح حتى أشرق على الوجوه. لقد عرفت هذه الوجوه في الدنيا تعب الطاعة، وصبر المقاومة، وألم الفقد، ومشقة الثبات، لكنها اليوم تدخل في نعمة الجزاء بعد خشونة الطريق.

ثم تكشف الآية سرّ هذا النعيم: ﴿لِّسَعِيٍّ رَّاضِيَةٍ﴾. ما أعظم أن يرى الإنسان يوم القيامة أعماله التي ربما نسيها وقد تحوّلت إلى رضا! سجدة أداها في جوف الليل ولم يعلم بها أحد، وكلمة حقّ قالها حين كان

الصمت أكثر نفعاً لمصلحته، ودمعة خشية أخفاها، ولقمة وضعتها في يد محتاج، وشهوة تركها لله، وأذى قدر على رده فعفا، وحق أذاه مع حاجته إليه؛ كل ذلك لم يضع، وإن خرج من ذاكرة صاحبه. الله لا ينسى، والعمل الذي أخلص له قد يختفي عن الأرض، لكنه لا يختفي عن السماء.

والتعبير بالسعي يحمل لطفًا عظيمًا؛ فالإنسان لا يملك دائماً بلوغ النتائج، لكنه يملك صدق السعي. قد يجتهد في إصلاح إنسان فلا يستجيب، أو في بناء خير فتأتي العقبات، أو في مقاومة نفسه فيضعف ثم ينهض، لكن الله يعلم وجهته وصدقه ومقدار مجاهدته. وليس معنى ذلك أن النية تغني عن العمل الممكن، بل أن عدل الله ورحمته لا يضيعان محاولة صادقة عجز صاحبها عن تمامها. إن الناس يقيسوننا بما ظهر من النتائج، أما الله فيعلم ما وراء النتيجة: الدافع، والقدرة، والعوائق، والصدق، والخفايا التي لم يرها أحد.

وفي قوله ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةً﴾ علاجٌ لاحتقار العمل الصالح الصغير. قد يهمس الشيطان للمرء بأن صلاته قليلة، وصدقته محدودة، وأثره ضئيل، فيترك القليل لأنه لم يبلغ الكثير. لكن طريق النجاة يُبنى من خطواتٍ قد تبدو صغيرة، ثم تتكاثر بالثبات والإخلاص. البذرة لا تشبه

الشجرة، ومع ذلك تحمل سرّها؛ والعمل الصالح الصغير لا يشبه في عيننا نعيم الجنة، لكنه إذا قبله الله حمل إليه صاحبه. والمهم ألا يتخذ الإنسان من صغر العمل عذراً لتركه، ولا من كثرة تقصيره ذريعة للاستسلام، بل يظل يسعى، ويستغفر، ويصحّح الوجهة، ويرجو القبول.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ دُونََ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾

إنها ﴿جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾؛ عالية في منزلتها، رفيعة في درجاتها، سامية فوق ما يستطيع الخيال البشري أن يحيط به. والعلو هنا يناسب رحلة المؤمن الذي لم يسمح للشهوات الدنيا أن تسحب روحه إلى أسفل؛ كان يعيش على الأرض، لكن قبلته فوق نزواتها، ويخالط الناس، لكن قلبه لا يستمد قيمته من تقلّب رضاهم. وكلما جذبتّه الحياة إلى سفاسفها تذكّر أنه مخلوقٌ لغايةٍ أعلى، وأنه لا يليق بروج عرف الله أن تبيع مصيرها من أجل لذةٍ عابرةٍ أو مجدٍ زائل.

ثم يذكر القرآن نعمةً قد لا ينتبه إليها من اعتاد ضوضاء الدنيا: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾. لا تسمع في الجنة كلمةً ساقطةً أو باطلةً أو مؤذية، ولا ضجيجاً يكدّر صفاء النفس. إن نعيم السمع جزءٌ من نعيم الجنة؛ لأنّ الكلمات في الدنيا قد تكون جراحاً لا تُرى، وقد يبقى صداها في القلب سنواتٍ بعد أن ينسى قائلها أنه قالها. كم من روج أتعبها افتراء، وكم من

علاقة هدمها لسان، وكم من قلبٍ انكش لأنه عاش طويلاً تحت وابل
السخرية والتجريح! في الجنة ينتهي هذا كله، فلا لغو يبّد المعنى، ولا
كذب يشوّه الحقيقة، ولا غيبة تنهش الغائب، ولا خصومة تستنزف
الطمأنينة.

ومن هنا يتعلّم المؤمن أن يجعل لسانه قطعةً من الطريق إلى الجنة.
فإذا كانت الجنة منزّهةً عن اللغو، فليطهر مجلسه منه ما استطاع، وليكن
حضوره في حياة الناس مصدر أمنٍ لا مصدر أذى. ليس حسن الكلام
ترفاً أخلاقياً، بل عبادةٌ تبني عالماً صغيراً من السكينة وسط صحب الدنيا.
وقد لا يستطيع الإنسان أن يمنع كل لغو يصل إلى سمعه، لكنه يستطيع
ألا يكون مصنعاً له، وألا يمنحه لسانه طريقاً جديداً إلى القلوب.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٠﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١١﴾ وَأَكْوَابٌ ﴿١٢﴾
مَوْضُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٤﴾ وَزَرَارٍ مُبْثُوثَةٌ ﴿١٥﴾﴾

تنساب العين في الجنة جاريةً، وفي جريانها معنى الحياة والتجدد
والصفاء. ليست ماءً راكداً يخشى عليه التغير، بل نعمةٌ متدفقة لا ينقطع
مددها. وبعد العين الجارية تأتي السرر المرفوعة، والأكواب الموضوعة،
والنمارق المصفوفة، والزرايى المبثوثة؛ مشهدٌ يجمع الرفعة والتهية والجمال

وحسن النظام. كل شيءٍ مُعدّ لاستقبال أهل النعيم: مجلسهم مكرم، وشرابهم قريب، ووسائلهم مصطقة، وبسطهم منشورة. لا عناء في إعداد الراحة، ولا خوف من زوالها، ولا قلق يحتجّ خلف اللذة.

في الدنيا تظل الراحة ناقصةً لأن الإنسان يخاف فقدها. يجلس في بيتٍ جميل لكن هاجس الرحيل يمرّ بقلبه، ويشرب شراباً لذيذاً لكن الجسد لا يلبث أن يعطش، ويأنس بمن يحب لكنه يعلم أن الفراق يمكن أن يأتي من أي باب. أما نعيم الجنة فليس لذّةً محاطةً بالتهديد، بل أمانٌ يملأ اللذة من داخلها. ولهذا لا تقاس الجنة بما نعرفه من أثاثٍ وماءٍ ومجالس؛ فالألفاظ تقرب المعنى إلى إدراكنا، لكن حقيقة ما أعدّه الله لعباده أوسع من حدود التجربة البشرية.

السرر المرفوعة توحى بكرامة أهلها بعد أن تواضعوا لله في الدنيا، والأكواب الموضوعة توحى بأن النعمة قد دنت من غير مشقة، والنفارق المصفوفة تكشف جمال الترتيب، والزرايبي المبوثة تملأ المكان سعةً وأنساً. كأن كل تفصيل يقول للواصلين: انتهى زمن الامتحان، ووصلتم إلى دار الجزاء. وما أعجب أن تتحوّل دقائق الصبر في الدنيا إلى راحةٍ لا تنفد، وأن يكون امتناعٌ عابرٌ عن الحرام طريقاً إلى نعيمٍ لا يخالطه ندم، وأن تؤول التضحيات التي لم يفهمها الناس إلى هذا الاحتفاء الرياني العظيم.

ويمكن للقلب أن يستنبط من هذا المشهد ميزاناً جديداً للحرمان والعطاء. ليس محروماً من فقد بعض متاع الدنيا إذا حفظ إيمانه وكرامته، وإنما المحروم من باع نصيبه الباقي بلذة تنقضي. وليس فائزاً كل من نال ما يشتهي الآن، بل الفائز من لم تجعل الشهوة العاجلة بينه وبين الجنة حجاباً. إن العمر أقصر من أن يكون غايةً في ذاته، لكنه عظيمٌ من حيث إنه الطريق الوحيد إلى الأبد؛ وكل يومٍ منه صفحةٌ يمكن أن يكتب فيها الإنسان شيئاً من سعيه الذي سيرضى عنه، أو شيئاً يمتنى لو لم يكتبه.

الفصل الرابع

كتاب القدرة المفتوح: من الإبل إلى امتداد الأرض

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾

بعد أن رفعت السورة الأبصار إلى الغيب، أعادتها إلى مشهدٍ قريبٍ مألوف: الإبل التي عرفها المخاطبون الأوّلون وخالطوا أحوالها، وانتفعوا بركوبها ولبنها ولحمها، ورأوا قدرتها على احتمال الصحراء. وهذا الانتقال من القيامة والجنة والنار إلى مخلوقٍ يتحرك أمام العين ليس انقطاعاً في السياق، بل بناءً للحجة: فالذي أبدع هذا الخلق قادرٌ على البعث، والذي أحسن تقدير خصائص المخلوقات لم يخلق الإنسان عبثاً، والذي أحاط بحاجة الكائن في رحلته قادرٌ على أن يعيده للحساب بعد موته.

لا تقول الآية: أفلا يرون، بل تقول: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾؛ والنظر أعمق من مرور الصورة على العين. قد يرى الإنسان الشيء كل يوم ولا ينظر إليه مرةً واحدةً نظر اعتبار. الألفة قد تصبح حجاباً، إذ نظن أن اعتيادنا

للمشهد يعني فهمنا له، فتفقد الأشياء دهشتها لا لأنها خالية من العجب، بل لأن القلب فقد قدرته على السؤال. والقرآن يعيد للعين بكارتها، فيجعل المألوف باباً إلى المعرفة، ويوقظ في المرئي سؤال الكيفية: ﴿كَيْفَ خُلِقْتُ؟﴾

وليس المقصود أن يعرف كل إنسان التفاصيل العلمية لتكوين الإبل، وإن كانت دراسة الخلق تزيد العارف بصيرةً، وإنما المقصود الأصلي أن يتأمل إحكام الصنعة وتناسبها مع الوظيفة، فينتقل من الأثر إلى المؤثر، ومن النظام إلى حكمة المنظم. إن سؤال كيف خُلقت لا يكتفي بوصف الآليات، بل يفتح خلفها سؤال المصدر والتقدير: من منح هذا الكائن هيئته، وهيأه لبيئته، وربط أعضائه ووظائفه في وحدة حية؟ إن المادة لا تفسر وحدها الحكمة التي تنتظم بها، والوصف لا يلغي سؤال الخالق، كما أن وصف الحروف والخبر لا يفسر معنى الكتاب ولا ينفي مؤلفه.

وفي تقديم الإبل ملحق تربوي؛ فطريق الإيمان لا يبدأ دائماً من الأشياء النادرة والبعيدة، بل من أقرب ما يحيط بالإنسان. كان العربي يرى بعيده، ونحن نرى أجسادنا وأشجارنا وطيورنا وتعاقب ليلنا ونهارنا، لكن العبرة واحدة: أن نكسر قشرة العادة، وأن ننظر إلى الموجودات

بوصفها آياتٍ لا أشياء صامتة. العالم في الرؤية القرآنية ليس كتلةً مغلقةً على ذاتها، بل كتابٌ دالٌّ، وكل مخلوقٍ فيه حرفٌ من حروف القدرة والحكمة والرحمة.

﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾

يرتفع النظر من الإبل القريبة إلى السماء الممتدة فوق الجميع. ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾؛ سؤالٌ يفتح في الوعي مساحةً هائلة. يرى الإنسان السماء كل يوم حتى تكاد تتحوّل في حسّه إلى خلفيةٍ معتادة، لكن القرآن ينتزعها من الاعتياد، ويعيدها معجزةً قائمة. هذا علو، وهذا الاتساع، وهذه الأجرام، وهذا النظام الذي لا يختلّ عن تقدير الله: كيف صار كله سقفاً للوجود المرئى ومجالاً من مجالات الدلالة على عظمة الخالق؟

كلما اتسعت معرفة الإنسان بالكون، اتسع أمامه مجال العجب، وإن لم يكن الإيمان نتيجةً آليّةً للمعلومات وحدها؛ فقد يملك المرء معرفةً واسعةً بالنجوم ويظل قلبه غافلاً عن رب النجوم. العلم يصف ويقيس ويكشف، لكن الهداية تتطلب إلى جانب ذلك تواضعاً أخلاقياً يسمح للإنسان أن يعترف بحدوده، وألا يتخذ من قدرته على فهم بعض القوانين ذريعةً لنسيان واضعها. إن من أعجب أوهام الإنسان أن يزداد علمه بجزء

من الكون، فيظن أنه استغنى عن خالقه، كمن يفهم سطرًا من كتابٍ عظيم ثم يدّعي أن الكتاب كتب نفسه.

والسمااء المرفوعة تصغر تحتها أبحام الادعاءات البشرية. ما الذي تعنيه شهرة إنسانٍ في مدينةٍ صغيرةٍ من هذا الكون إذا خسر نفسه عند الله؟ وما قيمة سلطانٍ محدودٍ فوق رقعةٍ من الأرض أمام ملكٍ من رفع السمااء؟ إن التأمل في السمااء ليس هروباً من الواقع، بل تصحيحٌ لمقاييسه؛ فالذي ينظر إليها بصدقٍ يتعلم التواضع، ويدرك أن الإنسان مهما علا في الأرض يظل تحت سقف القدرة، وأن الحياة لا تستقيم حين يتصرف المخلوق كأنه مركز الوجود ومالكه.

﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾

ثم تستقر العين على الجبال: ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾. فيها معنى الثبات والرسوخ والهيبة، وكأنها شواهد ضخمة أقامها الخالق في الأرض لتذكّر المارّ بضعفه. يقف الإنسان أمام الجبل فيشعر بصغر جسده وقصر عمره، لكن الجبل نفسه، على صلابته، مخلوقٌ خاضعٌ لأمر الله، لا يملك لنفسه بقاءً إذا جاء الوعد الذي تصير فيه الجبال كالعهن المنفوش. وهكذا يجمع التأمل القرآني بين رؤية الثبات الحاضر ومعرفة التحول الآتي: فما يبدو لنا أقصى صور الرسوخ ليس خالداً، والخالد هو الله وحده.

وتعلّنا الجبال أن الثبات لا يعني الجمود؛ فهي راسخة في موضعها، لكنها جزءٌ من نظامٍ حيٍّ متكامل. وكذلك الإنسان يحتاج إلى جبالٍ معنويةٍ في نفسه: عقيدةٌ لا تقتلها كل شبهة، وقيمٌ لا تشتريها كل مصلحة، ووفاءٌ لا يذوب عند أول اختبار. غير أن هذا الاستنباط الأخلاقي يظل تأملًا مستفادًا من صورة الرسوخ، لا تفسيرًا حصريًا للآية؛ فالمعنى المباشر هو الدعوة إلى النظر في خلق الجبال ونصبها دلالةً على القدرة.

وكم يحتاج عصر السيولة إلى هذا المعنى؛ حيث تتغير المواقف أحيانًا بتغير الجمهور، وتباع القناعات في سوق المنفعة، ويتعلم بعض الناس فنّ الظهور أكثر مما يتعلّمون صدق الجوهر. الجبل لا يستمد هيئته من التصفيق، والمؤمن لا ينبغي أن يستمد يقينه من تقلّب المزاج العام. إنه يعرف أن الثبات على الحق قد يكلفه شيئًا من الراحة، لكنه يحفظ له وجهه حين تتغير الوجوه، ويحفظ له سعيه حين يُعرض السعي.

﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾

ينتهي مسار النظر إلى الأرض: ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، أي بسطت ومهدت للناس بحيث يستقرون عليها ويسIRON في مناكبها وينتفعون بها. والآية تصف ما يشاهده الإنسان من انبساط سطح الأرض وتبنيته

للعيش، ولا يلزم من هذا الوصف نفي ما ثبت من هيئة الأرض الكلية؛ فالقرآن يخاطب الإنسان بما يدركه في مقام الامتنان والدلالة: أرضٌ مبسوطةٌ تحت قدميه، صالحةٌ للسير والاستقرار والزراعة والعمران.

ينظر الإنسان عادةً أمامه أو فوقه، لكنه قلماً يتأمل ما يحمله في كل لحظة. الأرض صامتةٌ تحت الأقدام، ومع ذلك تقوم عليها الحضارات، وتخرج منها الأقوات، وتحتضن البيوت والطرق، ثم تستقبل الأجساد بعد انتهاء الرحلة. إنها مهد الحياة وموضع الامتحان ومستودع الراحين إلى موعد البعث. يمشي الإنسان عليها مزهواً بقوته، وهي تحمله بإذن الله، ثم يأتي يومٌ يُحمل فيه إليها، فلا يبقى من خطواته إلا ما سجلته صحائف العمل.

ويكتمل أماننا مشهداً بالغ الانسجام: الإبل في مستوى النظر القريب، والسماء في العلو، والجبال بارزةً في الأفق، والأرض ممتدةٌ تحت القدم. كأن الإنسان محاطٌ بالدليل من كل جهة؛ فإذا نظر أمامه وجد آية، وإذا رفع رأسه وجد آية، وإذا أبصر ما يربخ في الأفق وجد آية، وإذا تأمل ما يمشي عليه وجد آية. ليست أزمة الإيمان إذن فقراً في العلامات، بل قد تكون فقراً في الانتباه. والله لا يطلب من الإنسان أن

يهرب من العالم ليعرفه، بل أن يحسن النظر في العالم حتى يدرك أنه ليس متروكاً بلا خالقٍ ولا غاية.

الفصل الخامس

وظيفة الكلمة وحدود السلطة: إنما أنت مذكر

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾

بعد دعوة الناس إلى النظر، يتوجّه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿فَذَكِّرْ﴾. الفاء تربط التذكير بما سبق؛ فإذا كانت دلائل القدرة قائمة، وإذا كان المصير آتياً، ففهمة الرسالة أن توقظ العقول والقلوب إلى ما تدلّ عليه الآيات. والتذكير يفترض أن في فطرة الإنسان قابلية لمعرفة الحق، لكن الغفلة تغطيها، والشهوة تشوش عليها، ونتابع الأيام يجعل المصير يبدو بعيداً. يأتي الوحي فلا يخلق للإنسان روحاً جديدة، وإنما يستنقذ روحه من طبقات النسيان.

وصف الرسول بأنه مذكر تكريمٌ للكلمة الصادقة وتحديدٌ لوظيفتها. إنه يحمل النور إلى أبواب القلوب، ويبين الطريق، وينذر ويبشر، لكنه لا

يملك أن يزرع الهداية في قلبٍ رفضها؛ فهداية التوفيق بيد الله. وهذه الحقيقة تمنح الداعية توازناً دقيقاً: عليه أن يبذل غاية البيان والرحمة والصبر، لكنه لا يحمل نفسه ما ليس في قدرتها، ولا يظن أن تأخر الاستجابة دليلٌ حتميٌّ على فشل الكلمة. قد تُلقى الكلمة اليوم ثم تنام سنواتٍ في الذاكرة، حتى توقظها محنةٌ أو لحظة صدق، والله أعلم بمسارات القلوب.

والتذكير غير التحقير؛ فليس من وظيفة حامل الحق أن يهدم كرامة المخاطب بحجة إنقاذه. الكلمة التي تأتي من علٍ قد تغلق القلب، وإن حملت في ظاهرها معنى صحيحاً، أما التذكير القرآني فيجمع وضوح الحقيقة مع الرحمة بالإنسان. إنه لا يساوم على الحق، لكنه لا يحول الحق إلى أداةٍ للانتقام النفسي. والرسول صلى الله عليه وسلم، وهو المأمور بالتذكير، كان أرحم الناس بالخلق وأصدقهم نصحاً وأبعدهم عن طلب التعالي الشخصي.

وكل إنسانٍ يحتاج أن يكون مدركاً لنفسه قبل غيره؛ فالنفس سريعة النسيان، تقترب من الحقيقة في لحظة، ثم تسحبها العادة إلى أطراف الغفلة. تحتاج في صباحها إلى تذكيرٍ بالنية، وفي غضبها إلى تذكيرٍ بالعدل، وفي نجاحها إلى تذكيرٍ بالشكر، وفي ضعفها إلى تذكيرٍ بالرجاء،

وفي ذنبها إلى تذكيرٍ بالتوبة، وفي وحدتها إلى تذكيرٍ بمعية الله وعلمه ورحمته. وليس الإيمان لحظةً واحدةً تبلغها ثم تستغني عن تجديدها، بل هو حياةٌ تحتاج إلى ماء الذكر كما يحتاج الجسد إلى الماء.

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾

لست عليهم بمسلّطٍ يكره قلوبهم على الإيمان. فلا اعتقاد الذي ينشأ من القسر الخارجي لا يكون إيماناً قليلاً، والاستجابة التي يريدّها الله هي استجابة المسؤول الذي يسمع ويعقل ويختار، ثم يلقي جزء اختياره. لقد أعطى الله الإنسان إرادةً في دائرة التكليف، وأرسل إليه الرسل، وأقام عليه الحجّة، ولذلك كان للحساب معنى. ولو كان الناس يُساقون إلى الإيمان قسراً لما ظهرت حقيقة الصادق من المعاند، ولا معنى للمجاهدة من الاستسلام.

ولا تعني الآية إلغاء ما جاءت به الشريعة من مسؤولياتٍ وأحكامٍ وسلطاتٍ مشروعة، وإنما يبيّن السياق حدود مهمة الرسول في إدخال الإيمان إلى القلوب: هو مذكّرٌ ومبلّغٌ، لا مالكٌ لسرائرهم. وبهذا تُنقذ الدعوة من التحوّل إلى رغبةٍ في السيطرة النفسية على الآخرين. قد يختلط على الإنسان حبّ الهداية بحبّ أن ينتصر رأيه، فيغضب لنفسه وهو يظن أنه يغضب للحق، ويؤلمه ألا يكون مركز التأثير أكثر مما يؤلمه ضياع

المخاطب. أما من فقه معنى ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ فإنه يطهر نصحه من حب التملك، ويترك لله مساحة القلوب التي لا يعلمها سواه.

وفي الآية راحةٌ للمصلحين والآباء والمربين؛ فهم مطالبون بالبيان والقُدوة والدعاء وبذل السبب، لكنهم ليسوا مالكي النتائج. لا يجوز أن تكون هذه الراحة ذريعةً للتقصير، لكنها تمنع اليأس المدمر حين يتأخر الأثر. ازرع بصدق، واسق برفق، واحمِ النبات ما استطعت، ثم اعلم أن النباتات سرٌّ من أسرار الله. وقد يكون في إلحاح السيطرة ما ينقر، بينما تفتح الرحمة الهادئة باباً ظلّ مغلقاً طويلاً.

الفصل السادس

لا طريق خارج الرجوع: الاستثناء والحساب الأخير

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ ۖ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ
الْأَكْبَرَ ۖ

تأتي الآياتان بعد نفي السيطرة لتؤكد أن غياب الإكراه لا يعني غياب المسؤولية. للإنسان أن يختار في زمن التكليف، لكنه لا يملك أن يلغي نتائج اختياره. ﴿تَوَلَّى﴾: أعرض وانصرف عن الحق، ﴿وَكَفَرَ﴾: جحد ما وجب عليه الإيمان به. فليست القضية خاطراً عابراً مرّ في النفس، ولا سؤالاً صادقاً يبحث عن اليقين، وإنما موقف إعراضٍ وكفرٍ يصير صاحبه عليه حتى يلقي الله.

وفي التعبير بالتولي صورةً حركية؛ فالخلق أمام الإنسان، لكنه يعطيه ظهره ويمضي. وقد يبدأ التولي قبل الكفر الظاهر بخطواتٍ داخلية صغيرة: يكره المرء ما يزعج هواه، ثم يتجنب سماعه، ثم يبحث عما يبرر

إعراضه، ثم يتحول البعد المتكرر إلى قسوة، والقسوة إلى موقف. لذلك كان من رحمة الله بالإنسان أن يحاسب نفسه عند البدايات: لماذا يضيق صدري بهذه الحقيقة؟ أفيها ضعفٌ في الدليل، أم لأنها تطالبني بتغييرٍ لا أريده؟ هل أنا باحثٌ عن الصواب، أم باحثٌ عن حجةٍ أبقي بها كما أنا؟

ثم يأتي الوعيد: ﴿فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾. والعذاب الأكبر هو عذاب الآخرة في مقابل ما قد يصيب الإنسان في الدنيا من آلام ومصائب. ووصفه بالأكبر يردّ الأشياء إلى أبحارها الحقيقية؛ فإيراه الإنسان في الدنيا نهايةً للكوارث يظل محدوداً بالزمن والجسد، أما الخسارة الكبرى فهي أن يصل إلى الله وقد قطع ما بينه وبين رحمته بالإصرار على الكفر والإعراض.

غير أن ذكر العذاب في القرآن لا يبيح للبشر أن يحدّدوا مصائر الأعيان بغير علم، ولا أن يحولوا الوعيد الإلهي إلى قسوةٍ شخصية. الله أعلم بالقلوب وقيام الحجة وبخواتيم العباد، وهو الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة. ومهمتنا أن نخاف على أنفسنا، وأن نبليّ الحق بالتّي هي أحسن، وأن نرجو الهداية للناس ما داموا أحياء. إن المؤمن لا يقرأ آيات الوعيد ليشعر بالتفوّق على الهالكين، بل ليزداد انكساراً وخوفاً من سوء الخاتمة، وشكراً لله على نعمة الهداية، ورحمةً بمن لم يعرف الطريق.

﴿إِنَّا إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ﴾

الإياب هو الرجوع. وتأتي الجملة مؤكدةً بـ **إِنَّ**: رجوعهم إلينا لا إلى غيرنا. ما من مخلوقٍ يستطيع أن يفتح للإنسان طريقاً خارج هذا المصير، وما من قوةٍ تؤجل الموعد إذا جاء، وما من أرضٍ تستقلّ بساكنيها عن ملك الله. قد يرجع الإنسان في الدنيا من سفرٍ إلى بيت، ومن غربةٍ إلى وطن، ومن خسارةٍ إلى بداية؛ لكن الرجوع الأخير يختلف عن كل رجوع، لأنه عودة المخلوق إلى موقف الحساب بين يدي خالقه.

وفي إضافة الإياب إلى الله جلالاً وأماناً معاً؛ جلالاً لمن أعرض وظلم، وأماناً لمن آمن واستقام وتاب. إننا لا نعود إلى قوةٍ عمياء، ولا إلى كونٍ أصمٍّ، ولا إلى فوضى لا تعرف أسمائنا، بل نرجع إلى الله الذي خلقنا ويعلم سرّنا وجهرنا، ويعرف ضعفنا ومحاولاتنا ودموعنا وما ضاع من حقوقنا. المظلوم حين يقرأ ﴿إِنَّا إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ﴾ يدرك أن خصمه لن يهرب إلى الأبد، والمحزون يدرك أن قصته ليست منسيةً، والتائب يعلم أنه يعود إلى ربٍّ سبقت رحمته غضبه، والمحسن يطمئن إلى أن الخير الذي لم يشكره عليه أحدٌ محفوظ.

لكن الإنسان يعيش أحياناً كأن إياه إلى ما جمعه أو إلى من أحبه أو إلى الاسم الذي صنعه في الناس. يبني ذاته داخل المرايا البشرية، فإذا

تغيّر نظر الناس إليه اهتزّ مكانه. وتأتي الآية لتحرره: رجوعك ليس إليهم، وميزانك الأخير ليس في أيديهم؛ فلا تجعل رضاهم إلهاً صغيراً يوجّه خطواتك، ولا تجعل خوفك منهم أقوى من خوفك من الله. افعل الحق ولو تأخر الاعتراف، وارك الباطل ولو زينت الجمال، لأن الذين تصنع صورتك أمامهم راجعون معك، وكل واحدٍ منهم مشغولٌ بحسابه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾

بهذه الآية تُغلق السورة دائرتها الكبرى. بدأت بحديث الغاشية، وانتهت بالحساب، وبين البداية والنهاية عرضت وجوه المصير، ودلائل القدرة، ومهمة الرسالة. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾: الله وحده يتولّى الحساب بعلمه الكامل وعدله المطلق؛ فلا تخفى عليه خافية، ولا يحتاج إلى شاهدٍ ليعلم، وإنما يقيم الشهادة والحجة إظهاراً للعدل. يعلم الفعل ونيتة، والكلمة وظرفها، والطاعة ومشقّتها، والذنب وملابساته، والتوبة وصدقها. لا تضيع عنده حسنةٌ لصغرها، ولا تختفي سيئةٌ وراء جمال الصورة.

والحساب يعيد إلى الأخلاق معناها العميق. لو كانت الحياة تنتهي عند الموت، لظلت مظالم كثيرة بلا إنصاف، وتضحيات كثيرة بلا ثمرة، وأسرار كثيرة بلا كشف. لكن الإيمان بالحساب يقول إن بنية الوجود أخلاقية، وإن الخير والشر لا يستويان في النهاية، حتى لو اختلطا مؤقتاً في

أعين الناس. قد يموت الظالم على فراشه، وقد يرحل المظلوم دون أن يسترد حقه، لكن القصة لم تنته؛ لقد انتقلت إلى المحكمة التي لا يملك فيها الظالم نفوذاً، ولا يحتاج المظلوم فيها إلى واسطة.

ومن شأن هذا اليقين أن يجعل الإنسان أكثر حذراً ورحمةً في آنٍ واحد. يحذر من ظلم الناس؛ لأن حسابهم ليس بيده، ويعاملهم بالفضل؛ لأنه يرجو فضل الله، ويتسامح فيما يخصه إن قدر؛ لأنه يعرف فقره إلى العفو، لكنه لا يهون من حقوق الآخرين، ولا يمنح نفسه حق إسقاط ما ليس له. كما يحرره الحساب من عبء لعب دور الديان المطلق في حياة الخلق؛ فليس عليه أن يفتش في القلوب، ولا أن يحاكم النوايا، وإنما عليه أن يعدل بحسب الظاهر، ويكل السرائر إلى من قال:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾.

والتعبير بـ «علينا» يملأ القلب يقيناً بأن الحساب واقعٌ لا محالة، وأن الله قد تكفل به على ما يليق بجلاله. فلا يحملنك تأخر العقوبة على الشك في العدل، ولا يحملنك تأخر الثمرة على ترك الخير. الزمن جزءٌ من الامتحان، وقد يمهّل الله ولا يهمل، ويؤخر ظهور النتائج لحكمة، لكن صحائف الأعمال لا تدوب بتقادم الأيام. ما نسيته أنت محفوظ، وما أخفيت عن الناس معلوم، وما فعلته خالصاً لله لن تضيع ذرةً منه.

الخلاصة

حين تتحول الغاشية من خبر المستقبل إلى نورٍ للمحاضر

تنتهي سورة الغاشية، لكن سؤالها الأول يظل مفتوحاً في القلب: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾؟ والجواب الحقيقي لا يُقال باللسان وحده، بل تكتبه هيئة الحياة. إذا أتاك حديثها حقاً، خفّ سلطان الزائل عليك، وصرت أقدر على مقاومة ما يلبع ولا يبقى، وأشدّ خوفاً من عملٍ يرهقك ثم لا ينجيك، وأكثر حرصاً على سعيٍ ترضى عنه حين تراه. وإذا أتاك حديثها حقاً، لم تعد الآخرة موضوعاً مؤجلاً إلى مجالس المواعظ، بل أصبحت معياراً حاضراً في تجارتك وخصومتك وحبك وغضبك وخلواتك وقراراتك.

لقد عرضت السورة وجهين، وبينهما طريقان: وجهاً خاشعاً ذليلاً بعد أن ضلّ سعيه، ووجهاً ناعماً راضياً بعد أن وجد ثمرته. وليس بين الوجهين في الدنيا حاجزٌ مرئي؛ فقد يجلس صاحب المصيرين في مجلسٍ واحد، ويمشيان في طريقٍ واحد، وتشابه ظواهر حياتهما، لكن كل

قلبٍ منهما يبني وجهه الأخير في الخفاء. النية ترسم، والعمل يلون،
والتوبة تحو، والإصرار يثبت، حتى يأتي اليوم الذي تظهر فيه اللوحة
كاملة.

وعلمتنا السورة أن التعب ليس فضيلةً مستقلةً ما لم تهده الحقيقة.
فليس أخطر على الإنسان من أن يبذل نفسه في الطريق الخطأ، وأن يظن
كثرة الحركة دليلاً على الاقتراب. من هنا تصبح المحاسبة ضرورةً
روحية: إلى أين يقودني هذا السعي؟ ماذا يفعل بقلبي؟ ماذا يبقى منه إذا
نزعت عنه أعين الناس ومكاسب الدنيا؟ وهل هو مما أرجو أن أراه يوم
أكون لسعيي راضياً؟ إن سؤال المصير لا يعطل العمل، بل ينقيّه من
العبث ويمنحه وجهةً تليق بكرامة العمر.

ثم فتحت السورة نافذة الرجاء، فرأينا الجنة لا بوصفها مكاناً للمتعة
فحسب، بل داراً تنتهي فيها أشكال النقص: لا لغويجرح، ولا تعب
يرهب، ولا عطش يقلق، ولا نعمة يهددها الزوال. فيها العين الجارية،
والسرر المرفوعة، والأكواب الموضوعة، والنمارق المصفوفة، والزراي
المبثوثة؛ عالم أعدّه الله لمن آمن وسعى. وإذا استقرت صورة هذا النعيم
في القلب، هانت عليه بعض مشاق الطاعة، لا لأنها يسيرةٌ في ذاتها، بل

لأن ما وراءها أعظم، فالمسافر يحتمل وعشاء الطريق حين يعرف جمال المنزل.

ولم تجعل السورة الإيمان انفصلاً عن العقل، بل دعت الإنسان إلى النظر: في الإبل كيف خلقت، وفي السماء كيف رفعت، وفي الجبال كيف نصبت، وفي الأرض كيف سطحت. إن الكون ليس جداراً يحجب الله، بل أثرٌ يدلّ على قدرته لمن أبصر. وكلما تعلم الإنسان أن ينظر، استعاد العالم دهشته: لم يعد الماء عادة، ولا السماء فراغاً، ولا الأرض أرضية صامتة، ولا المخلوقات كماً بلا دلالة. كل شيء يستردّ معناه حين يرى في ضوء الخلق والحكمة.

وأقامت السورة حدّاً واضحاً بين التذكير والسيطرة. مهمة الرسالة أن تقول الحق وتبينه وتجسّده رحمةً وخلقاً، لا أن تقتحم القلوب بالقوة. وعلى المصلح أن يخلص في كلمته، ثم يدع النتائج لربها؛ فلا يعذب نفسه بما لا يملك، ولا يبرر تقصيره باسم الهداية التي بيد الله. إنه يبذل ما يستطيع لأنه مكلف، ويطمئن بعد البذل لأنه عبد، لا ربّ للقلوب.

ثم جاءت النهاية حاسمة مطمئنة مهيبة: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ثم إنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ. ليس الإنسان ورقة سقطت في ريح الوجود، ولا قصته حادثة بلا خاتمة، ولا ألمه فائضاً بلا معنى. إنه راجعٌ إلى الله؛ راجعٌ بكل

ما أحب وخاف، وبكل ما أخفى وأعلن، وبما استطاع وما عجز، وبالفرص التي اغتنمها وتلك التي أهدرها. وهناك يعرف أن العدل كان يراقب المشهد كله، وأن الرحمة فتحت له أبوابها مراراً، وأن حياته، على قصرها، كانت أتمن مما ظن.

فيا من بلغك حديث الغاشية، لا تجعل الخبر يقف عند حدود السمع. دعه يدخل إلى ترتيب أولوياتك، وإلى نظرتك للنجاح والخسارة، وإلى طريقة كلامك مع الناس، وإلى خلواتك التي لا يراك فيها أحد. اجعل للآخرة مقعداً في كل قرار، لا لتتحول حياتك إلى خوفٍ مظلم، بل لتنجو من عبودية العاجل، وتعيش بميزانٍ أصدق وأرحم وأبعد مدى. واعمل لسعيٍ ترضى عنه، واستغفر من سعيٍ تخشى لقاءه، وانظر في آيات الله بعينٍ لا يطفئها الاعتیاد، وذكّر بالحكمة دون أن تنازع الله سلطان القلوب.

فالغاشية آتية، لكن القرآن أخبرنا بها قبل أن تأتي، وهذه المهلة هي موضع الرحمة، وهذا اليوم هو مجال العمل، وهذه الأنفاس التي بين أيدينا ليست وقتاً زائداً على المصير، بل هي المادة التي يُبنى منها المصير. ومن عرف أنه عائداً إلى الله لم يعد تائهاً، وإن طال الطريق، لأن الغاية قد اتضحت، والميزان قد نُصب في القلب، والوعد لا يتخلف: إلى الله

الإياب، وعليه الحساب، وعنده يستقرّ العدل، وتبلغ الرحمة منتهاها بأهلها.

وبهذا تمّ تدبرّ سورة الغاشية كاملةً، من آيتها الأولى إلى آيتها السادسة والعشرين، والحمد لله رب العالمين.